صلصة حارَّة
محمود جمعة
النسيم

لم يعد يسمع أنين أبيه المريض من داخل غرفة النوم، ولا حديثه المقتضب مع زائريه، لكنه انتبه إلى صوت شيخ يمسك فى يده بحقيبة بلاستيكية سوداء ويخبر أحد أعمامه بحاجته إلى ماء دافئ، وأن يدخل الغرفة معه اثنان من الرجال على وضوء ليساعداه فى الغُسل، تبادر إلى ذهنه أن أباه قد اشتد به المرض، حتى إنه لم يعد يستطيع أن يتحمم بمفرده ويلزم أن يساعده أحد على ذلك..

- لماذا لم يستعن به أبوه بدلا من هؤلاء الغرباء؟

دار النسيم
للنشر والتوزيع

(صلصة حارة)

(مجموعة قصصية)

محمود جمعة

مراجعة لغوية

الاستاذ / سامي بحر

إهداء

إلي أمي

أسألها العفو و الرضا

ليلة ميلاد الضوء

فجرُ يغُطُ فى النومِ ، و ليلُ يسدلُ الظلمةَ على البقاعِ ، و الجنّيات الماجِناتُ فككنَ الضَّفائرَ ، نثرنَ جدائِلَهُنَ ، و رُحنَ يوقِدنَ النارَ ، يمارسنَ الطقوسَ تقرباً لإلهِ الظلمةِ كى يترُكَ الفجرَ نائماً و يضفى على هذا الليلِ مزيداً من اللونِ الأسودِ الذى يساعدهُنَ على ممارسةِ السحرِ و اللهوِ و الضحكاتْ ..

و أبو بكرٍ الطفلُ مُتيقظُ ، يتأملُ الأشياءَ من حولهِ ، و الكبارُ الذين يغُطُّونَ مع الفجرِ فى نومٍ عميقٍ ..

رأى نفسهُ يحبو بين أرجُلِهم .. ينظرُ فى سخطٍ إلى هذه الهاماتِ العاليةِ ، التى تستطيعُ أن تلمسَ السماءَ بأطرافِ أصابِعِها ، و كيف أنهم يتلاعبون بالأشياءِ من حولهِ .. كيف يستطيعون فتحَ بابِ الثلاجةِ ، و إشعالِ الموقدِ ، و نقلِ لُعبهِ المفضلةِ من رفٍ إلى رفِ ، غير عابئينَ برغبتهِ فى إعادةِ ترتيبها كما يتراءى لهُ ، و حينها لا يملكُ سوى البكاءَ ، الذى يدفعُهم أحياناً إلى استنتاجِ رغبتهِ ، أو تجاهُلها ، بإلقاءِ اللعبِ على الأرض بجواره ، و كأنهم يقولون له ضعها حيثُ تشاء ، ساخرين من عدمِ قدرتِهِ على أن يطاوِلَ هاماتَهم ، و ما يستطيعون ..

اللحظاتُ تمرُ ، و أبو بكرٍ يتأملُ الجنيات ، يترقبنَهُ بشغفٍ ، عابثين به تارةً ، و تارةً ينظرنَ إليه فى ريبةٍ حين يسألهُنَ عن أشياءَ كثيرة لا يردن له أن يعلم عنها شيئاً .. سألهن عن السماءِ ، و الأرففِ ، و سطحِ الموقدِ ، و بابِ الثلاجةِ ، و كن يجبنه

– غداً ستعرف ..

سألهن عن الألوان ، وهذا اللونِ الأبيضِ ، الذى دائماً ما يظهرُ ، متجاوزاً رُقعة اللون الأسود فى باطنِ السماءِ

– غداً ستعرف ..

يا له من غدٍ بعيدٍ .. يا ليتنى أستطيعُ بلوغَهُ قبل استيقاظِ الكبارِ

أبو بكر الآن وحده مستيقظاً و الكبار نيامُ ، تنبه إلى أنهم دائماً واقفون ، أعوادُهم منتصبةُ ، و هذا ما يجعلها ترتفع إلى حد السماء ..

- لهذا لا يتركوننى أحاولُ الوقوفَ ، ربما يخشون أن أباريهم فى ممارسة الأشياء التى يستطيعونها !

الجنياتُ يترقبنه , و أبو بكر قرر أن يشدَّ عوده ، أن يصل إلى باب الثلاجة ، و أرفف اللعب ، و سطح الموقد ..

– سوف أتجاوزُ كلَّ هذه الأسطح عابراً إلى عنانِ السماءِ ، فبماذا أبدأ ؟ ترك النيامَ يغطُّون ، و راح يحبو جيئةً و ذهاباً

- بماذا أبدأ ؟

هداه التفكيرُ إلى الموقدِ .. أقربُ الأسطحِ .. راح يحبو تجاهه ، و الجنياتُ يتحفزن ، يشعرن برغبته فى إيقاظِ الفجرِ ، قتلِ إلهِ الظلمةِ ،

و استدعاءِ الغدِ الذى سوف يجيبُ على كلِّ أسئلتهِ .. أقتربَ من الموقدِ .. لامَسَهُ .. استندَ إلى أحدِ قوائِمِهِ .. ها هو الآن يقفُ على ركبتيهِ مبتسماً ..

قارب أن يصل ، و الجنياتُ يتربصن به ، و هو يحاول أن يقف على قدميه .. سارعن إليه .. حملن جُذوةَ النارِ ، و المراجلِ ، و عَدَوْنَ إلى السطحِ .. فى اللحظة التى طالت أصابعُهُ سطحَ الموقدِ ، قذفْنهُ بكراتِ النارِ ، سكبن المراجلَ على ظهرهِ ، أسقطنهُ أرضاً ، فانطلق الضوءُ بانطلاق صرخته كنجمٍ ثاقبٍ ، قتل إلهَ الظلمةِ ، و ألقى بالجنياتِ فى جُبٍ سحيقٍ .. أيقظ الفجرَ و النائمينَ ، و صراخَ أبى بكرٍ متألماً من وهج النار على جسده

.....

.....

استيقظَ فجرُ و جاءُ غدُ .. و أبو بكرٍ ممددُ فوق السريرِ ، الكبارُ حولهُ ، ينظرون إليه فى لهفةٍ و شغفٍ ، و هو شاحبُ الوجهِ ، شاردُ الذهنِ ، يفكر فى النارِ ، الضوءِ.

راح يسأل أعينهم

- أما من سبيل لنشئة الضوء ، سوى التوهجِ و الاحتراق ..

لم يجبه أحد .. ما رحلوا .. ما يزالون حول السرير يثرثرون ، يقصون الحكايات عن نوادر الصغار ، يحتسون أكواب الشاى ، الذى أتوا به من فوق بقايا النار على سطح الموقد ..

ألُمُ مفرطُ ..

صهٍ .. فلقد نام الآن أبو بكر ..

حجر و نافذة

هاتف صامت، و منضدة مكسوة بنقوش قديمة، كرسى هزاز يتأرجح، و فنجان لم يزل ينفث بخار القهوة فى ربوع الغرفة ، كلهم يطلون من النافذة التى يتسلل منها نسيم الصبح بلفحة باردة ، تلاحقه خيوط من أشعة الشمس الحمراء التي تتسلق الجدران رويدا روبدا ، ينتظرون العابر فوق رصيف الشارع حاملا حجرا و قلما وكسرة خبز .

و ساكن الغرفة يقف بجوار المنضدة، يتناول فنجان القهوة، يرتشف دون أن يحول بصره عن النافذة فى توجس و خيفة، و النافذة لا تعرض سوى حفيف أوراق الأشجار المتساقطة على الرصيف، و صوت عصفور وحيد يسكن الشجرة المقابلة ، لا يغرد ، يحرك رأسه يمينا و يسارا يترقب.

تعودوا جميعا على ذلك كل صباح ، ينتظرون إلى أن يمر العابر ، ينشد لحنا لا ينهيه حتى يبدأه ، و حين يبلغ الشجرة ، يقذف بكسرة الخبز إلى العصفور فيبدأ فى تغريد عذب ، ثم يسطر بقلمه على جزع الشجرة حرف الرفض مرارا إلى أن يكسر سنه، فيستدير ليقذف النافذة بالحجر فيتجاوزها إلى الجدار المقابل، و يسقط فوق كومة من الحجارة المتراكمة على أرض الغرفة جراء الأيام السابقة، فيبتسم

العابر حين يرى القهوة سالت فوق الأيدى المرتعشة، و تبعثرت أجزاء الفنجان أثر سقوطه على الأرضية الباردة ، و اهتزت صور الأشياء حين تلتقى بأشعة الشمس على الجدران ، يبتسم العابر كثيرا ثم يكمل مسيره.

و اليوم تأخر عن موعده ، حتى ملأت أشعة الشمس أرجاء الغرفة ، و أنهى ساكنها فنجان القهوة عن أخره، فأخذ ينظر إلى النافذة تارة و إلى أكوام الحجارة تارة، دون أن يترك مكانه بجوار النافذة ، رن صوت الهاتف يخترق الصمت ، فتناوله ، أنصت ثم راح فى نوبة من الضحك الهيستيرى ، حين أتاه صوت الطرف الأخر ينبأه بأن المهمة قد أنجزت، وضع السماعة ، و اتجه إلى النافذة حاملا بندقية صيد ، وجهها إلى العصفور فأرداه قتيلا ، ضحك ملأ صدره ، ثم صرخ و تراجع ليستند بكفيه على المنضدة، حين رأى سيل دماء تمر كنهر، يرسم طريق العابر و يختلط بدماء العصفور المسجي، ويلون حرف الرفض بلون الدم.

افتحوا الأبواب

أربعة مقاعد موزعة فى أركان الغرفة .. مكتبه و أوراقه المبعثرة على سطحه، أقلامه الرصاص، و فنجان القهوة الفارغ، حين شرع فى كتابة روايته، التى لم تكن ملامحها قد اتضحت فى مخيلته بعد، لم يكن يجلس على مكتبه، بل على الكرسى الذى يحتل الركن الشمالى من الغرفة ، و عن يمينه باب مغلق ..

- بماذا أبدأ ؟ .. كان ؟!
- .. لا ..لا أظن ، لم تكن الأحداث فى ماضى الزمان ،
- ما زال ؟! ، هذا يعنى أن الرواية بشخوصها و لحظاتها تعيش فى هذه الأيام

نظر حوله ، الغرفة تميل إلى الظلمة التى تحد من الرؤية الكاملة للأشياء من حوله ، بدت المناظر من حوله باهتة ، و الصمت يحتل المساحة الأعظم من الدقائق و الساعات..

- .. سوف؟! .. لا .. ما يأتى امتداد لما هو جارى أصلا .. لا فائدة من البحث عن بداية لرواية كهذه .. هذه الرواية يجب أن تصنع نفسها بنفسها

أسقط قلمه من بين أصابعه و اتكأ على مسند الكرسى ، كفه تداعب ذقنه ، و فكره يشيح بعيدا ، اعتدل فى مجلسه

- لن أكتب هذه الرواية ، بل سأدخلها ، أمارس أحداثها ، أشارك أبطالها لحظة بلحظة ..

قام من مقعده و اتجه إلى الباب المغلق .. طرقه فلم يجب أحد ، مرة ثانية و ثالثة، لا أحد..

عاد ليجلس فى المقعد الكائن فى الركن الجنوبى من الحجرة ، يملأه الشتات و العزوف و ضعف البصيرة ، تناول قلمه و قفز إلى الباب ، عاود القرع فلم يلق إجابة ، مسح الباب بكم قميصه ، و رسم ريشة و محبرة و بردية فارغة، ثم عاد ليجلس على المقعد فى الركن الشرقى ، أتكأ فى مواجهة الباب و أطل عليه فى شغف ، لعله يرى من يطرقه ، يفتحه ، يكسره .. الوقت يمر ، و هو و قلمه و أوراقه البيضاء ينتظرون

- لا فائدة من الانتظار ..

شب من مجلسه و هرع إلى الباب ، همت يده بالطرق عليه ، لكنه رأى فوق البردية االبيضاء كلمات لم يكتبها ، أمعن النظر و قرأ

- الأحداث جمة و الأبطال لم يأتوا بعد

عاد ليجلس على المقعد الأخير فى الركن الغربى من الحجرة ..ثبت نظره على الباب و شخصت عيناه و هو يردد:

- ها .. ماذ تفعلون ؟ متى ستأتون ؟ هل من علامة تدل على وجودكم أصلا ؟ هل من مجيب ؟ جئتكم من عالم خارجى ، من بين صفحات بيضاء ، جئت أسألكم المشاركة ..

صمت قليلا ، و راح يتأمل هذا الباب الصلد الصامت .. راودته الفكرة فى أن يقوم فيحطمه ، يفتحه على مصرعيه ليدخل إلى ما وراءه ، لكنه أحجم عن المحاولة خشية المجهول ..

و بعد مجاهدة مع نفسه ، قام إلى مكتبه ، أختطف قلما كربونيا و هرع إلى الباب ، سكن لبرهة ثم رفع يده ليكتب على الباب

- تبدأ أحداث الرواية .. حين يفتح هذا الباب

عزف منفرد

مفرداً ، يجلس على المقهى الوحيد الذي احتل نتوء الحارة، مفرداً و أمامه كوب من الشاى المتبل بالصداع، و قرع قطع الدومينو على المناضد ، يعد المارة و لا يراهم ، و أمامه طاولة النرد ، يلاعب نفسه، و الخاسر يدفع ثمن الشاى ، و عزف الدومينو ، و الصداع ، و ساعات الانتظار..

ثلاث ساعات و لم تمر سناء ، لم يحن للدهر فجر جديد ، أخرج من جيبه علبة سجائره، فوجد فيها سيجارة مثله وحيدة ، أشعلها بعود الثقاب الأخير في علبته ، أشعلها ، فأشعلت فيه ذكرى المساءات التي مرت عليه ينتظر سناء ، ينتظر أن يلمحها ، يصفف شعرها بنظرة ، و يضبط إيقاع النرد على خطواتها، ثم يطوح بزهر النرد خارج الطاولة ، و عيناه ترافقاها إلى بيتها ، حيث تختفى بعد أن تبتلعها نظرات البقال، و العطار ، و ماسح الأحذية ، و باب المنزل، فتهز انفراده بقهقهات لولبية ، و يفيق ، على صوت النادل يبتسم له فى خبث، و هو يناوله زهر النرد، و فاتورة الحساب ، المشتملة على ثمن النظرة التي قايضها بعمره ، و فكره ، و أشياء أخرى لم يعدها ..

أفاق من غيبته حين لسعته نار السيجارة، التي احترقت من حرارة جسده سريعا ، ما أعارها اهتماما ، فسناء الآن تمر .. صمتُ يطبق على عزف قطع الدومينو ، و صوت النادل ، و أبواق السيارات، و عراك الأطفال ، و أغنية المذياع، فسناء قد بلغت ناصيات الطريق، تحدق في السائرين ، الجالسين ، الواقفين ، تسحقهم بنظرة ، و تستعيدهم بابتسامة ، ترشقهم بتموجات الخصر ، و الجسد الراقص على وقع الخطى ، لحظات، و ترميه فى مجلسه بنظرة تهم به، فيهم بالوقوف، منتشيا بهذه النظرة المهداة ، فتقهقه، و تتركه و قد حصل على حصته اليومية ، ليخرج كل شيء من بين الصلب و الترائب .. فيبتسم ، و هو يناول النادل فاتورة اليوم ، على موعد غداً.

بطتان

بطتان , تصيحان بالباب ، و أمى استقبلت الفجر بالدعاء

- ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا

طبعت فوق جبين الصبح ، ركعتين و سنة ، ثم راحت تتلوا ما تيسر من آيات ، لا تدرى كيف حفظتها دون قراءة مسبقة .

البطتان لا تزالان بالباب ، ترددان الشعارات في مظاهرة سلمية ، للمطالبة بحقهما في وجبة الإفطار اليومية ، و أمى ، و التسبيح ، و إناء الماء فوق الموقد ، يقطعون الصمت ، إيذاناً بميلاد يوم جديد ..

-الحمد لله الذي هدانا و ماكنا لنهتد ...

تحاول أمى بنداءاتها ، أن تزيح ما تبقى من ستائر الليل ، الجاثمة على أعيننا ...

- صباح الخير...

استيقظت النافذة ، و قطة الجيران ، و المذياع كعادته يبث الإعلانات المبهرة ، عن الوجبات السريعة ، المشروبات الغازية ، و وسائل منع الحمل ، تتلوها نشرة الأخبار ، المليئة بالمانشيتات المعتادة ، عن المشروعات العملاقة ، و فرص العمل المتوفرة للجميع ...

البطتان يعلو صياحهما ، مع تبدل نبرتهما السلمية ، بضجيج مزعج ، يوقظ أخى الأكبر و هو يصرخ فى أمى

-البطتان...

يقفز من فوق سريره منزعجاً ، حاملاً الأطباق من فتات مائدة الأمس ، متجهاً إلى حيث الباب ، يفتحه ، يضع الأطباق برفق أمام البطتين ، اللتين تهرعان إليه ، كأنهما كانتا تنتظرانه ، ليقهر الجوع الذي تمكن منهما .. يبتسم ، و يدلف عائداً إلى سريره ، غير عابء بنداء أمى ، و كأنه يعلن رفضه لتجاهلها البطتين ، و عدم الإنصات لمطالبهما ، فتضحك أمى ساخرة ، و تكمل تسبيحها الذي قارب على الانتهاء.

أمى .. دائما ما تسخر من مداعبة أخى للبطتين ، و جلوسه متأملا حركتهما أمام الباب ، و كيف أنه يقضي معظم وقته ، ليرسم صورا لهما على جدار البيت ، و فوق الباب ، و على أوراق البردى التي علقها فوق سريره .. كان أخى ، يطوى صفحات أيامه المملة ، بمراقبة البطتين ، و خاصة ، بعدما يعود من مشواره اليومي ، في رحلة البحث عن فرصة عمل ، لا وجود لها ، سوى في نشرة الأخبار اليومية ..

كنت أحسه ، متعاطفا ، مع عدم قدرتهما على التعبير عن حقهما ، فى الحصول على كل ما يلزمهما من مقتضيات الحياة ، سوى بالصياح ، و أشعر أنه كان يناجى فيهما نفسه ، و حاله التي طالت كثيرا ، مذ أنهى دراسته و حصل على شهادته الجامعية ، ثم أنهى خدمته العسكرية ، ليمارس طقوس البحث عن دور في الحياة.

البطتان لم ينقطع صياحهما ، و لكن هذه المرة كانتا تصيحان فرحاً ، بعد أن حصلت كلتاهما على وجبة إفطار دسمة ، حيث لم يلحظ أخى ، أن الأطباق التي ألقاها لهما ، كانت وجبة الإفطار التى تسعى أمى في تجهيزها لنا .. صرخت أمى هذه المرة موبخة إياه ، فراح في نوبة من الضحك ، أسكتت البطتين ، و صراخ أمى ، و رسمت فوق شفاهها أبتسامة بريئة حانية أيقظت الجميع .

قام من نومه ليقبل يد أمى ، و يرجوها ألا تنسى أن تدعو له ، فربتت على كتفه ، و ناولته منشفة ليغتسل ..

- صباح الخير...

نتداولها ، و واحدا واحدا ، نمر لنقبل يد أمى ، و هى تدعو لنا و تردد – ربنا و لا تحمل علينا إصرا ..

أكواب الشاى تملأ الغرفة بعبق البخار الساخن ، و صوت الرشفات ، يعلو على صوت المذياع ، و مواء قطة الجيران الشقية ، التي اعتادت أن تخطف الطعام من أمام بطتي أخى الأكبر..

الجميع يعبر الردهة خارجاً ، و أخى الأكبر يجمع أشلاء أوراقه ، يهرع خلفنا ، بعد أن يمسح بيده على ظهر البطتين ، اللتين تعدوان وراءه ، ثم تعودان بعد أن تزداد المسافة بينهما و بينه ، لتقفا عند قدمي أمى ، تودعنا بناظريها ، و تكمل دعاءها ، بعد أن نتركها وراءنا ، و البطتان تصاحبانها جيئة و ذهابا حتى توصد الباب .

كان أخى الأكبر يقف بجوارنا على محطة الحافلات ، باسم الثغر ، و حين سألناه ، أخبرنا أنه رأى في منامه أبانا ، طمأنه و بشره بالخير الكثير ، و لذلك ملأه الأمل أن يحصل على فرصة عمل اليوم ، فقد تقدم للعمل فى إحدى الشركات الكبيرة ، و اليوم موعد المقابلة الشخصية ، فباركنا له تباعا ، و هنأناه مقدما ، على وعد أن يلبي لكل منا مطلبه ، من أول راتب له ..

وصلت الحافلة و ابتلعتنا همومنا اليومية ، تاركين أخانا الأكبر ينتظر الحافلة التى ستقله إلى حيث موعده المرتقب.

مرت ساعات اليوم و أنا أجلس بين زملائي فى الصف الدراسي ، كلهم يتعجبون مني ، و أنا أبتسم بين الحين و الحين ، دون أن يكون هناك سبب ، و أنا خشية السخرية ، لم أشأ أن أخبرهم أنني أضحك من سيناريو الصباح ، البطتان ، و أخى الأكبر ، و هذه الفرصة التي سنحت له ، و كيف أن أيامه القادمة ستصبح أكثر إشراقا و بهجة ، حتى من هذا الصباح ..

مر النهار ، و دلفت عائداً إلى البيت ، حيث أن الجوع قد أخذ منى مأخذه ..

- ما لهذا الصمت ، الذي لا يقطعه سوى مواء قطة الجيران المتواصل ! ؟

انزلقت إلى الداخل ، تتبعنى قدماي إلى حيث أنظر ، أمى في الردهة تفترش الأرض ، رافعة يديها إلى السماء ، و كأنما لا تزال تكمل أدعية الصباح ، و الآخرون كأشباح ، مستقرة وجوهم ..

- ماذا حدث ؟ لا أحد يجيب ..

تركتهم و تجولت في المنزل ، الحجرات خالية من قاطنيها ، فالكل يجلس ملتصقا في الردهة ،اتجهت إلى غرفة أخى الأكبر ، وجدته يجلس القرفصاء فوق السرير، يضع رأسه بين قدميه ، و ما أن ألتفت إليّ حتى قام من مجلسه ، احتضننى بقوة ، و راح يبكى على كتفى ، كأنه يستنجد بي ، شعرت بالعجز ، و بأننى لا أقوى على شيء ، و أفقت على أخى و هو ينزع برديائه من على الحائط ، يمزقها ، و عيناه مغرورقتان بالدموع ، فعلمت أنه فشل أخر ، ورقة أخرى من أوراق العمر ، تمر دون سعادة.

وقفت كالتائه فى صحراء لا نهاية لها ، و وجدتنى أتركه و أمضى ، ذائغ العينين ، متبلد , لا مبال لما حولى ، إلى أن قادتنى قدماى إلى غرفة الطعام .. المائدة معدة ، لا أحد يقترب منها ، أغلقت الباب على صوت أمى ترتل

–ربنا لا تحملنا ما لاطاقة لنا به..

فراغ موحش يملأ المكان ، تجاهلت كل النظرات القادمة من الجدران ، النوافذ ، و من داخلى ، جلست إلى المائدة لا أدرى كيف ، و نزعت

الأغطية من فوق الأطباق ، لأجد أمى قد أقامت لنا وليمة الغذاء .. بطتان..

محكمة

الناس مقاعد صامتة ، و حدود القاعة، أشبه بالخط الفاصل ما بين الحياة و الموت ،

مقعد في الخلف ، و نافذة، هذه القاعة المليئة بالحضور، و اللغو ، وجوه تمتزج بقلق ، تختلط و معاطف سوداء مهملة ترتمي فوق أجساد باردة، تداعب ياقات رخيصة، وفى المقدمة، ثلاثة رؤوس تعتلى منبراً..

صمتُ، و عيونُ العسس تحدق في الجالسين، فتقتل الحركة في أجسادهم ..

نداءاتُ ، تجول في فضاء المقدمة ، دون أن تتجاوز النافذة

-٤٧ سيد محمد ، ٤٨ صابر على

المقاعد تتحرك من خلف إلى الأمام ، و المعاطف السوداء تتكاثر ، و تتناثر حروفُ مبهمة تملأ الأجواء ، و أذرع تجذب الناس و تلقيها جانباً ..

-أخر الجلسة..

الأبُ كمقعد ينتقل إلى منتصف، و بجواره ظهر أمرأة، تحمل البسمة فوق ذراعيها طفلةً ، و جهها يتكأ على كتف أعزل ، و يستدير محتويا

كل الوجوه بنظرة، الطفلةُ تكسوها الدهشة من وجوم الحاضرين ، لا تبك، فلربما لم تعرف الحزن بعد، أو ربما تختزنه اليوم، كى تستهلكه غدا ..

لا زالت النداءات في فضاء المقدمة ، و المعاطف السوداء تتململ ، تهرول ، بينما الوجوه الواجمة تنظر إلى لاشيء، و المقاعد تتراقص على أنغام النداءات، تتنقل من خلف إلى أمام ، ثم تستقر في منتصف القاعة، محاطة بعيون العسس الجاحظة تدور من حولها ..

-١٨٠ عادل طاهر .

- رفعت الجلسة...

تنسحب الرؤوس الثلاثة من القاعة، التي تضيق على الأب ، و تختصر نفسها في قفص حديدي يمسكه الأب بكفيه ، و النافذة أغلقت على اللغو، و المعاطف السوداء المهملة، و المقاعد ، بينما وجه الطفلة ما عاد يبتسم.

نهار مختلف

لم تعد للبحر رغبة في المد ، و الموج تنازل عن حقه في ممارسة الرقص على دقات طبول الرياح شاهراً حلمه في اجتياز الشطوط ، وهذه الزرقة، التي تملأ الأجواء، ليس إلا هذا الخيط الفاصل ما بين السماء و البحر، يتخلله ثقب أحمر، تحاول الشمس عبوره إلى نهار جديد ..

-هذا النهار مختلف ...

قال لنفسه ، وهو يستعد للإبحار بمركبه الصغير كما تعود كل صباح، بينما كان الصمت ، يسيطر على كل الأشياء من حوله، ولا يقطعه سوى صوت المحرك العجوز، وهو يدفع المركب، لتشق المياه الباردة ،إلى حيث موضع الصيد ..

على غير عادته، كان يشعر بالبرد يسرى في عظامه بسرعة، وهو لا يحدوه الأمل، في أن تمتد إليه يد الله، بوافر الرزق، حتى أنه لم يكن يتمتم بالدعاء كما كل صباح ..

كان جالسا على سطح المركب، يرقب البحر من حوله، ويستعين على الانتظار بالتأمل، والبحث عن سر صمت البحر، وعزف الموج عن الرقص ..

توقف المحرك، حين لاحت أمامه طيور، ظنها النوارس التي دائما ما تؤنس وحدته حين يخرج للصيد، و حينما أقتربت هالته المفاجأة، وأعجزته عن الحركة، فقد كانت أسراباً من الغربان ترفرف فوقه ، و كلما تجمعت من حوله يشتد البرد بداخله ، لكنه استجمع قواه ، ونظر إلى البحر، الذي لم يزل عاجزاً عن المد، والموج على سطحه متجمد ،لا حراك فيه ..

جاهدا استطاع الوقوف على قدميه، محاولا بث الدفء في جسده من جديد ، أنتقل إلى مؤخرة المركب، حيث تمكث شبكته، و غذاءه ، وطاولة فارغة ، أمسك بخيوط شبكته ، ألقاها في البحر، فارتدت إليه ، وكأنها اصطدمت بسطح صلب ، عاود الكرة، فوجدها تسقط، لكنها لا تغوص ، مرات و مرات.. ولا فائدة ، تملكه الخوف، أحس بأن هذا النهار يرفضه، وأن شيئاً ما، خلَّف وراءه كل هذا الصقيع ، وقضى على رغبة البحر، والموج ، وقرص الشمس، الذي لم يزل يحاول المرور إلى اليوم الجديد ..

امتطاه الخوف ، لكنه غالب الأمر، وأمسك بشبكته بقوة ، ألقاها بعيدا، فانفلتت من بين يديه ، ولم يعد يراها ، أستقر للأمر، لملم الأشياء من حوله ، استدار إلى حيث يرقد محرك المركب ، أراد أن يدير المحرك للعودة ، لكنه لم يتمكن من رؤيته، حيث غطته أسراب الغربان، التى استقرت فوقه ..

أسرع عائدا إلى مكانه، يسيطر عليه البرد و الخوف ، مدد جسده ناظراً إلى السماء ، والبحر الذي أكتسى بلون جليدي ، وإلي الشمس، التي لم تعد تحاول المرور إلى صبح جديد ، تبسم ، غمرته السكينة فجأة، فراح يردد : " كلهم مصرون .. هذا النهار، البحر، والموج ... فبسط ذراعيه و أغلق عينيه و .....

أنا و النهر و المرمرية تشدو

بينى و بين النهر توءمةُ ، أسرار و أحاديث مطولة ، نتجاوز بها ملل الوقت، و روتين الحياة اليومية..

هذا النهر المتسرع، الذي يعشق الركض ، و أنا القابع دائما أنتظره ، أحبه ، و لا يكرهنى.

بالأمس ، بتر نصف الحديث و ركض بعيداً ، أبتسمت ، لكن وجدتنى هذه المرة أتلصص عليه، بحثاً عن سر هذا الركض المفاجيء ، تلصصت فرأيتها، تأتى في اللحظة التي يتلاقى فيها على سطحه قرص الشمس الهابط ، و وجه القمر الصاعد ، رأيتها تخطو شدواً ، تتمايل نغماً ، تطرق بابه بباطن قدمها ، فتسري تموجات تدفع دوائر رنين الطرق لتنبأ بقدومها ، فيركض إليها فاتحا ذراعيه و الباب ، ماؤه يدعوها للدخول فتتردد ، يدعوها تتدلل ، يتوسل فتتنازل جزئيا عن دلالها، يداعبها و يتحسس أخمص قدمها ، عرقوبها ، متسللاً يصعد أرجلها ، تشعر به ، و بأنها اجتازت حد الباب ، فتتلفت ترقب عيون الأشجار ، النخيل ، و هذا القمر الصاعد لا يزال ، تنظر نحوي فأختفى ..

لم يزل يدعوها للدخول، فتمسك بذيل جلبابها لترفع عن جسدها أقنعته شيئاً فشيئا، و أنا لا يرتد إلي طرفي

- يا لبعد المسافة ما بين طرق الباب و دخول الجنة !

أنا لا زلت أتلصص، داخلى لا يستقر ، فالغيرة كالملح تجرى فى دمائي ، و تزيد من ثورة الموج داخلى..

- يا لك من خبيث أيها النهرُ ، لا أكرهك ، و لكنى أتمنى أن أمارس هذا الركض...

هي الآن تدخله ، يدخلها ، تهزه ، تعتصره اشتياقا إلى لحظة الشبق ، كلما مدت الخطو، صارت التموجات دوائرا تهزه بشدة ، فيركض إليها ، يعانقها ، يشرب عسلها ، و يستنشق عبق عبيرها ، فتتشكل دفقة من مائه جسداً يغلف جسدها المرمري، فتفرد جدائلها خيوطاً ليلية على وجهه ، لينام على صدرها و يستريح .. و أنا استرحتُ ، فالآن عرفت سر ركضه المفاجيء ..

أعاود التلصص ، وحين اكتمال وجه القمر على سطحه ، أراه يهديها إياه ، فتقبله تواضعاً ، و تستعد للرحيل ، يتململ ، تبتسم على وعد بأن تأتيه غدا ، يتشكك ، و لكنها رويدا رويدا تتسلل من بين أذرعه و أصابعه ..

التموجات ليست كعهدها، تخيفه فينكمش ، تربت على صدره ، فيسألها مرافقتها ، تؤكد له الوعد، فيركض إلى جرتها، محاولاً أن يختصر نفسه و يختبأ في قاع الجرة ، يملأها ، و تسيل مياهه العذبة على جانبيها ، لكنه يستمر في الصعود ، تكتفى ، و تحمل جرتها

فوق هذه الجدائل التي تركت خصلة منها على وجهه ، تتركه خطوة خطوة ..

متلصصا لم أزل لا يرتد إلي طرفي ، أنا البحر الذي أنتظره عند المصب ، متسعة اوردتى و هى تقترب ، هرولت إلى ركن الانتظار ، و أنا أسمع نحيبه يعلو ، و يتذمر حين يشعر أن دفقة الماء التي تحمل أريجها ، تتركه في اتجاهي..

-عذراً أيها النهر...

يكرهنى حين أبتلع الدفقة ، تجرى في أوردتى، فأشهق فى لحظة شبق

- أنا الآن أملك الرياح ، أسيّرها .. يا لقرب المسافة بيني و بين اكتمال.

أنا البحر أضحك، و المرمرية تمر من فوقي، ترمقنى بنظرة حيرى ، لا أبدد حيرتها، بل أبدأ الجزر، حين تبدأ في الشدو (البحر بيضحك ليه و أنا نازلة أدلع املا القلل)

حذاء أبي

عيناه معلقتان بالحذاء الرابض بجوار باب الشقة ، برباطه الممزق عنوة ، بينما أذناه تضج بثرثرة النسوة المكتسيات بالسواد، بعيونهن التي تتلألأ فيها الدموع ، و وجوههن العابسات، و رجال لا يعرف أكثرهم ، يهرولون جيئة و ذهابا ما بين غرفة نوم والده و باب الشقة ، اصطدمت قدم أحدهم بأحدي فردتي الحذاء ، فاجتثته من مكانه ، و ألقت به إلى منتصف الردهة ، لم يعره الجميع اهتماما سوى عينا الطفل ، التي راحت تتنقل مابين باب الشقة و الردهة ،

لم يعد يسمع أنين أبيه المريض من داخل غرفة النوم ، و لا حديثه المقتضب مع زائريه ، لكنه انتبه إلى صوت شيخ يمسك فى يده بحقيبة بلاستيكية سوداء ، و هو يخبرأحد أعمامه بحاجته إلى ماء دافيء ، و أن يدخل الغرفة معه اثنان من الرجال على وضوء ، ليساعداه فى الغُسل ، تبادر إلى ذهنه أن أباه قد اشتد به المرض ، حتي أنه لم يعد يستطيع أن يتحمم بمفرده ، و يلزم أن يساعده أحد على ذلك

- لماذا لم يستعن به أباه بدلا من هؤلاء الغرباء ؟

قام من مجلسه، ليلتقط فردة الحذاء من باطن الردهة، و يضعها بجوار الأخرى عند باب الشقة ، فقد تعود أباه أن يتركهما هناك ، و لم يكن يسمح له بالولوج إلى الشقة إلا أن يخلع نعليه، و يتركهما بذات المكان

، لاحظ أن كل الرجال يجولون الشقة دون أن يخلعوا أحذيتهم ، بل يجولون بها الشقة ، من الردهة إلى دورة المياه إلى غرفة النوم ، لماذا لا ينهرهم أباه على ذلك ، و لا يعلو صوته يندد بهم و يعزرهم ؟

تجرأت قدماه على السير نحو غرفة نوم والده ليخبره بما يفعلون لعله لم يلحظهم ، فاستوقفه أحد الرجال على باب الغرفة و أمره بالعودة ، وقف برهة ، ثم عاد إلى مكانه ، و هو يشعر أن هؤلاء الغرباء قد احتجزوا أباه ، و لن يسمحوا لأحد برؤيته أو الحديث إليه، مكث فى ركن ليس ببعيد يستطيع منه أن يرقب باب الغرفة ، و ما يحدث فى الردهة المؤدية إليها، تسارعت الأقدام دخولا و خروجا ، تحمل أنية مملوءة بالماء الدافيء، أو تمسك بأكياس من القطن ، أو عائدة تلقي بالماء إلى بالوعة دورة المياه

- لم يتعود أباه أن يتحمم فى غرفته!،

ظل على هذا الشرود، لا يخرجه منه سوي اللحظات التي ينظر فيها إلى باب الشقة ، ليتأكد من وجود الحذاء فى مكانه ، حتي جاءه عمه و ربت على كتفه ، أقامه ، ثم بصوت جاد حزين ، أخبره أن الغُسل قد انتهي ، نظر فى عين عمه و سأله

- هل انتهيتم من تحميم أبي؟

تساقطت الدموع من عيني عمه و هو يحتضنه

- لم يكن أباك يستحم ، لقد مات ، و كنا نقوم بتغسيله

فبادره بالسؤال

- هل يعني ذلك أن أباه سيسافر إلى السماء؟

طأطأ العم برأسه ، و ضمه إلى صدره و هو يبكي قائلا "إنا لله و إنا إليه راجعون"،

أفلت من بين أحضان عمه و سار نحو باب الشقة ، ألتقط الحذاء ، ثم سار إلى غرفة والده ، و هو يخبر عمه أنه سيلبسه الحذاء بنفسه كعادته حين يهم أبوه بالسفر.

الحصاد

يسكن إليها في يوم الغرس ، يحتضنها و يغرس فيها بذرة و أمنية ، و لا يمل الانتظار ، عشرون عاما ، يثمر غيطه و يجود عليه برزق وفير، و لا تثمر بذرة ألقاها فى جوف أمرأته ، التي يبادلها عشقا يفوق عشقه للأرض و ثمارها ، كانت تدفعه إلى هجرها ، و تنصحه أن يتزوج من أمرأة خصبة تعطيه مالم تستطع هي أن تمنحه ، و كان يبتسم فى رضا و يكتفي بنظرة حانية إلى عيونها الدامعة

و فى هذه الليلة ، كان ينام على جنبه متأملا فراغ البيت من حولهما ، ناظرا إلي وجهها الملائكي الناعس في جواره ، و قد تهدل شعرها الناعم فوق خديها ، مرر كفه فوق جبينها برفق ، و قرر ألا يوقظها و أن يعاشرها غدا بعد الحصاد .

أهلكه نهار طويل يحصد فيه نتاج غيطه، و عاد لتقابله بابتسامة تشرح صدره ، اغتسل ، و راح يداعبها و هي تغدو جيئة وذهابا ، حتي استقر بهما الأمر فى غرفة النوم ، و في الصباح أيقظته بقبلة على جبينه فبادلها ابتسامة ، ثم انطلق إلى يومه المعتاد ، و مرت الأيام بين غرس و ري، إلى أن أتته البشري بحمل أمرأته، فألقي فأسه و

هرول إلى البيت ، ليجدها في صحن البيت تنتظر عودته، ارتمت فى أحضانه فطوقها بذراعيه ، ثم حملها إلى السرير و نهاها عن الحركة على أن يحضر لها من يخدمها و يسهر علي راحتها .

استطالت عيدان القمح فى غيطه ، و ارتفعت بطن أمرأته يوما بعد يوم، و فى يوم حصاد ، كان يحصد سنابله، و يسمع أهات مخاض أمرأته و هي تلد فى البيت ، لم يطق الانتظار فأسرع عائدا ليجد القابلة لدي الباب ، تحمل طفله الباكي و تناوله أياه بقولها لله ما أعطي و لله ما أخذ.

كرسي متحرك

كلما زارها ، أزهرت فى بستانها نبتة ، و نضجت فوق شجرتها تفاحة خضراء، تذكرته و هي تنظر إلى بستانها وقد اصفرت أوراق شجيراته ، و ذبلت ورود كانت تؤنسها بعبيرها ، سبعة أشهر و لم يزرها ، لم يطرق بيده الحنونة بابها سائلا الدخول ، و لا دلف إلى حيث تجلس فوق كرسيها المتحرك فى وسط الصالة تشاهد التلفاز، أو تمسك بالأبر الطويلة تشغل بها سترة صوفية، أو ترتق ملابس الصغار، و تنتظره ليحملها عنها إلى ملجأ الأيتام فى أخر الشارع ، سبعة أشهر مضت و هي لا تسأل عنه خشية أن تأتيها الإجابة بما لايسرها ، و اليوم تنظر من النافذة إلى بستانها ، ممسكة بمنديل كان قد مسح عرق جبينه فيه و لم تغسله بعد ، كانت رائحته تؤنسها و تعوض عليها بعض من غياب ، جلست ترقب باب الحديقة ، تتخيله يدخل عليها حاملا وردة ، أو لوحا من الشيكولاتة حسبما تعود عند زيارتها ، تنسمت عبير رائحته ، و رن فى أذنيها وقع خطواته يصعد الدرج ، و أفاقت على صوت الخادمة تدعوها لتناول دواءها الصباحي ، سالت دمعتان على وجنتيها، و اصطنعت ابتسامة لتلقيها فى وجه الخادمة و هي تناولها حبوب الدواء، و كوبا من الماء ، تناولته ، و تجرأت و سألت عنه ، تلعثمت الخادمة ثم ابتسمت و قالت ربما يشغله شاغل ، أو

أخره أمر من أمور الحياة ، و دعتها ألا تشغل بالها وسوف يأتي قريبا ، أيقنت كذب الخادمة ، و تيقنت أن مكروها أصابه ، ففاضت الدموع من عينيها لتسقط فى حجرها ، طلبت من الخادمة أن تدخلها بعيدا عن النافذة ، و حين استقر بها الأمر أمام المنضدة فى وسط الردهة، سقطت عيناها على صورته بجوار سيارته ضاحكا، فابتسمت، و تناولتها تضمها إلى صدرها، و تفرغ ما فيه من ألم فراقه فى تنهيدة طويلة ، و كأنه بين أحضانها استقر، هدأت قليلا ،ثم وضعت الصورة فى حجرها، وتشبثت يداها بعجلات الكرسي المتحرك، تدفعهما كي تصل إلى درج المكتب الذى تحتفظ فيه بألبومات الصور ، مدت يدها تتناول ألبومات الصور ، لعل الذكريات تؤنس وحدتها إلى حين عودته ، توقفت دقات قلبها حين تناولت جريدة، كانت الخادمة قد تركتها فى الدرج، و على صفحتها صورة سيارته، و خبر إنقلاب سيارة من فوق الجسر و وفاة جميع ركابها.

أيام الهتاف و الموت

وضعت أكليلا من الورود على قبره فابتسم ، كانت غلفته بدمع ساخن ، لا يكف عن وخز خديها أبدا ، و كان يمشي فى شوارع المدينة باكيا سنوات عمره الفائت ، و هو يمضي باحثا فى سراب الأيام عن ماء الحياة ، فلا يجد سوي غروب سنواته بلا زهرة تنمو ، ولا بسمة فوق الشفاه تمر ، سائرا، تحدوه الرغبة ألا يكمل ، ألا يستمر نزيف أحلامه المستباحة كل صباح ، فلا زينة من مال أو بنون ، و لا أصابه سهم الحب فهام فى ليالي الصيف يناجي حبيبته بحلو القوافي ، كان يمشي على حافة الأيام، ثقيلة خطوته ، متعبة ، حين اقتحم سمعه ضجيج الحارات و الميادين اللصيقة ، و هي تهتف فى مظاهرة للرفض و الأمنيات ، سحبته قدماه خطوة خطوة إلى قلب الحشد ، و كأن مس أصابه و ألقي به فى قلب الزحام ، وبلا سابقة راح يهتف فيعلو صوته فوق الجميع ، فى كل صرخة فى وجه الرصاص ، يخرج بها مافي صدره من قنوط لا يغيب ، أحبه الحشد ، و أحب الهتاف ، يجري خفيفا خفيفا ، و قدماه تكاد لا تلمس الأرض ، طاردته العصي، الرصاصات، و المياه الباردة ، فباغتها وهرول فى اتجاهها ، و حين سقط مصابا بشظايا اخترقت كتفه ، أتته من حيث لا يحتسب ، مالت

عليه ،أحس بأنفاسها الساخنة تلهب خده، مدت يدها و رتقت جرحه فانفجر باكيا ، تذكر أنه منذ زمن بعيد لم تربت على كتفه يد ، و لا ابتسم فى وجهه سوي يوم مر دون أن يعيشه ، فودعه ساخرا ، كانت يداها المرتعشتان تمر على جرحه كمطر أصاب أرض عطشي، فاهتزت و ربت ، نظر في عينيها فلم ير سوي صورته مبتسما ، من يومها لازمته ، و التصق بها ، يخرجان كل يوم للهتاف سويا ، يحملها علي كتفيه ، و تحمل لافتة ترفض ، تهتف للحرية ، و يردد وراءها حرفا بحرف ، يمسك بيدها و يجري بها بعيدا عن فوهات البنادق ، يقبلها حين تشتد رائحة الغاز من حولهما ، أيام وهو يحيا ، يشعر بكل لحظة كدهر ، و كل يوم مقداره ألف عام ، أيام قاسمها الطعام ، الشراب ، الغناء ، الهتاف ، و البكاء الضاحك ، كان يُسمعها كلمات قصائده كل ليلة حين ينام النهار ، قصائد للحب و الحياة ، و حين اشتدت وطأة الكر و الفر فى الميدان ، هرول ناحيتها ، احتضنها ، هم أن يخلوا بها بعيدا ،و ألتفت فكانت رصاصة فى رأسه قابعة ، صمت كثيف، و شجر الصنوبر يظلل الشارع الطويل الممتد بلا نهاية ، ظل ممتد ، و بنفسجات ضاحكة على غير طبيعتها ، و هو لا يسمع سوي صراخها ، دقات قلبها الحزينة الواهنة ، أنفاسها الممتلئة بالغاز ، مدت يدها تسحب من جيبه ورقة أطلت من جيب قميصه عنوة حين سقط ، أزاحت عنها بعض دماء ، قرأت سطورها على مهل ، ثم ارتمت بجانبه مغشيا عليها ، فقد كانت قصيدته الأخيرة يبلل الدم عنوانها ، و

يتبل الفرح حروفها الطازجة ، حروف دافئة ، فى حرارة دمه المسجي على الرصيف، تخبرها أنه أحب الحياة بها و لها و أحب أن يحيا معها أيام للهتاف و الموت لاتنتهي..

كوب من الشاي

كوب من الشاي و سيجارة مثله مشتعلة، يؤنسان وحدته فى هذا الصباح الساكن ، لم يكن وحده ، و رفاقه فوق السرير فى الغرفة المجاورة يغطون فى النوم ، غير عالمين بما يدور ، حاملا كوبه و ممتلئا بعذابات الوحدة، خرج إلى الشرفة وهو ينفث دخان سيجارته، يغزو به الفراغ من حوله ، و يستدعي به أصدقاءه الموتي، الذين ألتقي بهم بين سطور ماقد قرأ ، فلاسفة ، شعراء ، سياسيون ، نقاد ، يأتونه تباعا من أقاصي الأرض ، ساعين لقضاء الصباح فى جدال لا مفر منه ، يبتسم كلما أتاه أحدهم ، لا يدعوه إلى رشفة من كوب الشاي الذى لم يزل دافئا فى يده ، بل يبدأ في استكمال حديثه السابق معه فى شبق و ثرثرة لا تنتهي ، رنات هاتفه المحمول تتعالي فيصمت، و يهرول أصدقاءه مبتعدين ، تاركين له الشرفة خالية من دفء الحديث ، يبتسم حين ينظر إلى هاتفه فيري أسما لصديق لايزال حيا ، يجيبه ، و يواصل معه حديث الموتي و كأنه وجد فيه ضالته ، يحكي له ما دار و ما يدور ، و كأن ثرثرته تعيد على مسامعه ما قد قرأ بإيقاع جديد ، يستمر فى حديثه عبر الهاتف غير مبال بسيجارته التي أوشكت على الانتهاء ، و حين تلسع أصابعه بلهيبها ، يغلق الهاتف ، و ينظر إلى

كوب الشاي فى يده و قد فرغ عن أخره ، يسير إلى حيث يضع كوبه و يلقي سيجارته بجوار أمثالها ، و هو ينظر إلى الشرفة ، عله يجد من بين ثنايا ضوء النهار صديقا قديما ، لم ينتبه لصوت أقرانه الذين استيقظوا توا و هم ينادونه من الغرفة المقابلة، فقد كان منشغلا يستقبل واحدا من أصحابه الموتي و يبتسم له قائلا ، أنا أختلف معك و لكني دائما ما أردد عنك " أنا الآن على شفا الموت وأنا أعبد الله، وأحب أصدقائي، ولا أكره أعدائي، وأمقت الخرافات" ، و تركه و أغلق الشرفة فى هدوء.

سلال الزيتون

تدحرجت زيتونة من سلتها، فدهستها أحذية الجنود العابثين بشارع السوق فى البلدة القديمة ، رمقتهم بنظرة تحمل فى بؤبؤها رصاصات لم تطلقها ، و دعاء لم يستجب بعد ، في صباحاتها تجلس فى حضن الرصيف ، ترسم بسلالها حدود موطنها ، الذى لا تسمح أن تطأه أقدام غريبة ، تشم عبير الأقصي فى نسائم الصباح ، التي يلطخ عبيرها رائحة الجنود و هم يشربون الخمر ، و عطور النساء ، و دماء الشهداء ، فتسند ظهرها إلى حائط قديم يرسم ملامحه على ظهرها النحيل ، و تحب نقشه على عظامها كلما تحسست ظهرها فى ساعات المساء ، حين تحين ساعات النوم ، و ألام الظهر ، و الحلم اليومي الوحيد.

قابعة فى مكانها بين الرصيف و الحائط، مستقيمة الظهر، الزيتون يملأ سلالها ، و تفوح منه رائحة قديمة مثلها ، قابعة بلا هوية ورقية ، تبيع زيتونها بنقود غريبة ، تشبه أوجه الجنود الرائحين ، العائدين ، المسلحين ، القاتلين ، المنتشرين فى أرجاء السوق و على بوابات المسجد ، و الأسوار .

شرقية ملامحها ، كمريم ، هادئة نفسها كعيسي ، تحمد الله فى ابتسامة ملؤها الأمل و الانتصار ، و تصر أن تصلي بين جدران الأقصي كلما

رفع أذان ، أو دقت أجراس الكنيسة، و حين دهست أحذية الجنود زيتونتها ، بكت ، و مالت على الأرض تلملم ما تبقي ، تحمل بذرتها ، تنفخ فيها، ثم تبتسم لها ، و تضعها فى صدر جلبابها ، لتغرسها شجرة جديدة ، تطرح زيتونا يزيد من سلالها فوق رصيف السوق.

وحيدة بعد أن عبر أهلها أسوار المدينة نحو الغرب، هاربين من بطش و خوف ، حالمين بالعودة ، و المقاومة ، و الانتصار ، و أصرت أن تبقي ، بنيت الأسوار و هي تشاهدها يوما بيوم ، تقطع طرفا من جسدها ، تفصل ضلعا من أضلعها ، فاحتلت هذا الرصيف، بعد أن جردوها من هويتها ، مسكنها ، فنجان قهوتها ، حمامة كانت تربيها فى صحن البيت ، وحيدة تجلس طوال اليوم تحدق فى السائرين ، تنتظر ذويها أن يأتوا لزيارتها ، أو يأتيها سائح بنبأ مبين ، كانوا كلما زراها أحدهم ، أو مر بها ولد ، سألها العودة معه ، عنفها لتركها إياهم خارج أسوار البلدة القديمة وحدهم ، سألها إلي متي؟ و كانت تجيبيهم فى ابتسامة مشتعلة ، سأبقي إلي أن أبيع زيتوني بنقود فلسطينية.

قضمة من فاكهة الجنة

فاكهة متراصة ، منمقة ، ملابس رثة ، و أقدام حافية ، و وجه طفلة يكسوه الغبار، تنظر إلى صنوف الفاكهة الممنوعة ، تتسلل رائحتها إلى أنفها ، فتشتهي قضمة من تفاحة لامعة تمكث بزهو على رف الحانوت، و صاحب الحانوت يراقبها بهدوء ، لا ينبس ببنت شفة ، تعلقت عيونهما بأمرأة تهبط من سيارتها الفارهة ، تحمل في يدها حقيبة من جلد تمساح قتل فى معركة للبقاء، و تزين أذرعها سلاسل ذهبية مشغولة على شكل ثعبان بعيون زمردية، يهتز خصرها و هي تدلف إلى الحانوت ، فيستقبلها صاحبه بابتسامة عريضة ، تشير بإصبعها ، فيهرع إلى حيث أشارت ، و لم يزل يرقب الطفلة تبتلع ريقها ، و تنظر فى حياء إلى تفاحة سقطت على أرض الحانوت ، فيبتسم حين تناوله السيدة رزمة نقود ، و يهرول إلى سيارتها حاملا أكياس الفاكهة ليضعها فى السيارة ، تصطدم عينا السيدة بعيني الطفلة فتشمئز ، و تسارع إلى سيارتها و تنطلق ، تاركة عينا الطفلة معلقة بتفاحة على الأرض لم تزل ، يميل صاحب الحانوت على الأرض ، يتناول التفاحة ثم يشير إلى الطفلة فى ابتسامة خجلة ، تتردد برهة ، ثم تسارع إليه ، يناولها التفاحة ، فتخطفها من بين ثنايا يده و تعدو إلى حيث لا يراها.

جالسة فى ركن تملأه القمامة ، لاتري شيئا سوي تفاحة بين يديها ، و بعض دجاجات تبحث بين فضلات الطعام عن شيء تأكله، تنظر إلى التفاحة بين يديها، تفرد طرف ثوبها لتمسح عنها الأتربة ، تلعق بلسانها ما يلعق بها من أوساخ لا تكاد تري حتي تغسلها ، كانت تأكل التفاحة بعينيها قبل أن تمتد يدها حاملة إياها إلي فمها.. قضمة و تنهيدة ، تتروي فى مضغ كل قضمة بلذة تشعرها بأنها قضمة من فاكهة الجنة ، كانت قد قاربت على الانتهاء حين نقرت دجاجة أطراف أصابع قدمها ، ضحكت ثم ناولتها رقاقة من قشرة التفاحة ، فانطلقت الدجاجات تتصارع عليها ، فقضمت قضمة أخري من تفاحتها ، مضغتها ، ثم ألقت بها إليهن ، و هن يصحن فرحات بمشاركتها بعض من فاكهة الجنة .

أخر قضمة ، و لذة الرحيل و الاشتياق ، مضغتها على مهل ، ابتلعتها ثم مالت على جنبها ، تفترش الأرض لتنام و ابتسامة تعلو وجهها .

حين استيقظت ، كانت الدجاجات قد رحلن ، فلملت جسدها و انطلقت إلى حانوت الفاكهة الذى أغلق أبوابه، فجلست فى انتظار الغد يسقط من فوق رف الحانوت.. تفاحة.

بائع الترمس

ترعة، تمردت على مسار النيل فانحرفت بمياهه إلى قرية صغيرة ، و جرفتها معها بعيدا عن طقوس قديمة أنهكتها ، فسكنت أعماق الترعة و سكن قلبها ، كل يوم حين يبدأ طقوسه مع أجولة الترمس التي يغرقها فى قاع الترعة ، كانت تنتظره لتضيء له موطأ قدم ، و هو يشمر عن جلبابه و يهبط إلى المياه بخطي حريصة ، شاهدها مرة تمشط جدائل شعرها الحريري المارق، ، فأعرض عنها خيفة ، و توجس شرا ، فعاجلته بنظرة هادئة ، و ابتسامة مطمئنة ، فاسترق النظر و رأها، لامعة عيناها فى ظلام دامس، وجهها كمشكاة ، عارية تختال برشاقة جسدها و حسن مفاتنها ، تسمر فى مكانه برهة ،ممسكا بطرف الجوال يدسه فى قلب الماء البارد ، ثم غض بصره سريعا و سعي يكمل عمله، و حين انتهي ، استدار خارجا دون نظرة أو سلام ، أصاب هنا قلبها ، ففاضت مياه الترعة حين بدأت فى الغوص، ترقص فرحة بعشقها ، كانت تزوره كل ليلة و هو نائم في فراش من خيش الأجولة ، فيراها كحلم وردي ، يسكن فيه إليها و ينام جوارها على سرير حريري ، يمارسان سويا طقوس العشق إلى حد الشبق ، و تتركه قبل أن يستيقظ ليصلي الفجر فى المسجد الرابض على شاطيء الترعة ، تتعقبه جيئة و ذهابا حتي تطمئن إلى عودته إلى داره و عربة

اليد التى تسكن معه في غرفته الصغيرة ، يأتيها فيرتب حبات الترمس فوقها، يدفعها إلى الشارع ، و ينادي بصوت رخيم ، فيأتيه الناس مقبلين على بضاعته بنهم و تلذذ، بينما تظل فى قصرها المائي تنتظره ، ترعي أجولته ، تسقيها من شهدها لذة حتي تنضج ، تنفخ فيها بريح طيبة تجلعها لذة للأكلين ، ثم تنتظره حين يعود من ذات الطريق ، يمر بضفاف الترعة و هو يدفع عربته فى كبد، فتشفق عليه ، و تصحبه إلى أن يتواري داخل بيته الصغير ، و تظل تزين نفسها، لربما نظر إليها إذا ما رأها ليلا حين يزور أجولته ، و لكنه كان يغض الطرف عنها، و كلما غض الطرف عنها شغفها حبا ، فتعود لتزوره فى الليل فوق فراشه ، تزيل عن كاهله إرهاق اليوم ، و تغسل جسده ثم ترقد فى أحضانه مطمئنة .

شغله حلمه اليومي، و هذا الوجه الملائكي الذي يلازمه فى أحلامه ، أخذه تفكيره إلى بهاء طلعتها ، جمالها الصارخ ، عودها المرمري ، حضنها الدافيء و حنوها عليه ، تمني أن يستيقظ فيجدها جواره، ليحيا معها فتتبدل أيامه ، و تقايض شقاءه بسعادة و هناء ، وفى هذه الليلة ، كان الماء يصل إلى ركبتيه ، و هو يهز أجولته ليسكنها قاع الترعة ، نادت عليه بصوت هامس ، و حين أصاب همسها أذنيه ، ألتفت ليجدها تبتسم له ، تذكر حلمه ، وجهها ، وجنتيها ، جسدها الممشوق ، أطال النظر ، ابتسم لها ، فمدت ذراعيها تحتضنه ، فأسقط الأجولة من يده ،

و غاص معها يجوبان دروب قصرها المائي ، و الابتسامة لا تفارق شفتيه.

لا يبغضهم ،

يبتسم و يلقي لهم التحية

صندوق ورنيش ، زجاجات الصبغة و فرشاة التلميع ، يصطفون فوق أسفلت الرصيف ، فى انتظار القدم الأتية ، و سعيد .. يجلس خلفهم فوق حقيبة المدرسة البالية ، مرتديا زيه الفقير ، و ممسكا بقلم و ممحاة ، و يستند إلى سياج حديدي يفصله عن شريط القطار ، تعوّد أن يمسك بالفرشاة و يطرق بها جانب الصندوق على فترات منتظمة ، ثم يعود ليسجد فوق كراسة ملقاة بجانبه، و أمامها كتاب مفتوح على درس اليوم ، ليبدأ طقوس الاستذكار ، حتي يأتيه المارون بحذاء باهت، فيهرع تاركا قلمه بين طيات الكتاب ، لتحتضن أكفه فرشاته ، يزيل بها غبار اليوم عن وجه الحذاء ، و يبتسم لوجه صاحبه ، الذي يضع قدمه فوق الصندوق ، و هو ينفث دخان سيجارته فى الهواء ، و يخدش بنظراته حياء النساء المارين إلى جواره، فيشرع سعيد فى سك قدمه، فى محاولة لإلهاءه متعللا بسؤاله أن يبدل قدمه بالأخري ، و حينها يتناول فردة الحذاء الأخري و ينهي ما قد بدأ ، فإذا الحذاء بوجه جديد ، و إذا بسعيد يتلقف النقود و يسكنها درج الصندوق ، عائدا إلى سجدته ، و واجباته ، و قلم مكشوط.

و بين الحين و الحين ، ينظر نحو إشارة المرور حيث يقف أبوه بجلباب قديم ، يبتسم للسيارات و السائرين ، حاملا ناطحات سحاب بناها من حلقات السميط ، و هو يلقي بها إلى جوف السيارات العابرة، و حين تلتقي عيونهما ، يهرع أباه إليه ليأتيه ببعض منها، ليتناول غداءه فى سعادة و شكر.

يمر اليوم، و سعيد بين نهم القراءة ، و هم جمع قروش اليوم التي تسعد أباه ، و تساعده ، و حين استقام فى جلسته، كان قد أنهي واجبات المدرسة ، فأغلق كتابه و لملم كراسته ، و أسكنهما حقيبته الجلدية الممزقة ، ثم أطرق يسعي ، فيدق جوانب الصندوق الخشبي بفرشاة التلميع، داعيا العابرين للقدوم إليه ، و جالسا يتأمل أطفالا خلف زجاج السيارات يضحكون ، يأكلون ، يشربون ، يرتدون ، فلا يبغضهم ، يبتسم و يلقي لهم التحية ، ملوحا لهم بفرشاته .

و قرب المساء، حين أنقلب الميدان ، كر و فر ، و أبوه يجري بين السيارات ، هاربا من أيادي العسس ، الذين يقبضون علي السميط و أبيه ، و يودعونهما صندوق سيارة الشرطة ، فلملم سعيد أوصاله ، تاركا وراءه حقيبته ، حاملا صندوق الورنيش ، يهرع خلف السيارة ، يجري بين سيقان المارة ، ينادي على أبيه ، و حين بلغ سيارة الشرطة ، توقف و راح يقهقه ضاحكا ، و هو يري صندوق السيارة يملأه

الشرطيون ، وجمع من البائعين ، يتوسطهم أباه و أمامه السميط ، يغني لهم " على بلد المحبوب وديني ، زاد وجدي و البعد كاويني" .

رايح السويس

قبر و شاهد من رخام هما كل ما يملك من هذه المدينة التى طالما حلم بالعودة إليها ، و بعض من ذكريات طفولية محي الزمان أكثرها مثلما محت الأيام تضاريس مدينته ، و غيّرت ملامحها فلم يبق فيها شيء على حاله ، أختفت الحارات المرصوفة بالبازلت الأسود ، البيوت الخشبية ، المشربيات ، رائحة البحر فى شعابها الضيقة ، كورنيش البحر الممتد من أولها حتي القناة ، استبدلتها الأيام بالمباني الخرسانية التي تتسابق نحو السماء و تتراص فى عشوائية متعمدة ، حتى الوجوه تغيّرت ، و تغيرت حوارات الناس فى الشوارع و كستها لغة غريبة بل لغات لم تكن هنا من قبل ، حين وقف على قبر أبيه الذى مات متأثرا بجراحه فى حرب الاستنزاف ، لم يجد شاهد القبر الرخامي ، و لا فسيلة من جريد على قبره ، تنهد و تلا ما تيسر من أيات ، و سيل من الدعاء لأبيه ، قاطعه مجموعة من الرجال يحملون أكياس بلاستيكية و جيوب جلاليبهم منتفخة مما تحمل من حصيلة اليوم ، سألوه أن يقرأوا للميت ، فرفض و ناولهم بعضا من نقود فقيرة، نظر أحدهم إلي هذه القطع النقدية الزهيدة و ابتسم ساخرا ، فتلفت له و سأله من أنتم و من أين أتيتم ، فأجابوا جئنا من بلاد بعيدة ، أرهقنا الفقر و الجوع و وجدنا فى هذه البلدة خيرا كثيرا ، عاجلهم بالسؤال عن شاهد القبر فأخبروه أن

الكثير منها فقد و لا يدري أحد إلي أين ذهبت ، تركهم و استدار يكمل دعاءه فتركوه و ذهبوا ، لملم أوصاله ثم سار خارجا من المقابر ، سار فى الشوارع لا يري فيها سوي وجوه الرجال الذين قابلهم فى المقابر ، كلهم متشابهون رغم أنهم جاءوا من بلاد متفرقة ليستوطنوا هاهنا ، أخذته قدماه وسط هذا الزحام إلى حارته القديمة فلم يجدها ، ووجد عندها قوما لا يكادوت يفقهون شيء من حديثه ، عندما سألهم عن دكان عم خضري العلاف ، عم سيد بتاع الوشنة ، الترعة ، كفر عبده ، عم محمد و صينية الكنافة، كانوا ينظرون إليه فى غرابة و اشمئزاز ، فأعرض عنهم و ظل يهيم فى شوارع تلفظه ، إلي أن وجد نفسه أمام موقف سيارات السفر ، فألقي بنفسه فى أحداها ، و حين سأله السائق إلى أين ؟ أجابه .. عايز أروح السويس

يا الخاوة أطلعوا للجبل

زليخة

عشرة أيام لم ينقطع نحيبها فى صمت صارم، كلما كسروا أصبعا فى كفها أضاءت مشكاة غرفة من غرف قصرها في الفردوس، حبيسة فى جب مظلم لا يضاء له شمعة و لاتطلع عليه شمس ، و هي و الصمت و العذاب المتواصل أصحاب لا يفترقون ، كانوا قد أحضروها من شرشال مربوطة فى حبل إلي سيارة عسكرية ، تسير مسرعة و تجرها خلفها، فتنقش بجسدها خطا فاصلا بين ليل قهر و صباح حر ، و ترسم بدمائها خارطة جديدة لجزائرها الغناء ، عشرة أيام و هو يتناوبون عليها فما نطقت ، و لا أخذوا منها سوي ما يؤخذ من جسد فان، وجهها المكسو بالدماء و الدمع يبتسم فى وجوههم فيهزمهم ، حتي يئسوا منها ، فحملوها فى طائرة أخذت ترتفع و ترتفع إلى أن بلغت عنان السماء ، ثم ألقوا بها خارجها ، وفى رحلة السقوط الصاعد إلى السماء بروحها ، ما كانت تكره فى سقوطها سوي انتهاء جهاد لم يكتمل بنصر، تسقط .. فيتساقط دمها من جروحها الغائرة يسبقها لاحتضان التراب، ، فتحت عينيها بصعوبة بالغة ، فشاهدت شرشال و زرقة البحر فى عينيها ، عروسا يوم أربعاء ترتدي الأبيض و الأحمر، تجلس فى صحن الدار لتطحن "الدشيشة" يأكل منها الجميع ، و طفلا

يقف فوق رأس تماثيلها الرومانية يلوح للسماء ، و منارة خشبية مليئة بالشموع فى يوم المولد ، و ابنتيها تقفان على شاطيء البحر و البسمة تملأ وجهيهما، دون أن يصطف الجنود لأغتيالهما ، طويلة هي رحلة السقوط إلى أرض جزائرها الحبيبة ، و زليخة مليئة بالحب و الخوف، و هي تنظر إلى أشباح الجنود يسحقون ، يدمرون ، يغتالون البحر و الزرع و قامات الرجال ، أنقبض قلبها ، و ارتطمت رأسها بالأرض فماتت ، تبخر جسدها فلم يبق منه سوي عبق رائحتها ، و صوتها الذي لم يختف من سماء شرشال و هي تصرخ "يا الخاوة أطلعوا للجبل أطلعوا للجبل".

أحبه هكذا

و لما أفاقت من غيبوبتها ، نادت عليه فلم يرتد إليها سوي صدي صوتها المبحوح من فرط الألم ، صارعت ترفع ستائر أجفانها لتفتح لعينيها مجالا للرؤية ، علها تبصره قابعا فى ركن الغرفة ، أو نائما من فرط السهر فى انتظار عودتها من غيبويتها الطويلة ، و حين أزاحت جفونها زاغ عن بصرها هذا الضوء الأبيض الذي يملأ الغرفة ، لم تجد أحدا سوي أجهزة و أنابيب و شاشات ، أقصي ما تظهر نقاط و خطوط ترتسم دون معني تفهمه ، استجمعت قواها و راحت تنادي عليه مرارا، حتي أتاها صوت الممرضة تفتح الباب عليها بابتسامة تعلوها الدهشة ، ثم استدارات مهرولة إلى خارج الغرفة تنادي الطبيب ، فلما استقر لديها أمسك بيدها و راح ينظر إلى تلك الشاشات المعلقة فوق سريرها ، ثم ابتسم و عاجلها بعبارات ترحب بعودتها للحياة ، قبضت علي يده فمال إليها بوجهه ليسمع ما تقول ، همست له تسأله عن حبيبها، هذا الذي تركته جالسا بجوارها قبل أن تغيب عن الوعي ، فأنبأها أنه سيتصل به يخبره عن عودتها ، حين دلف خارجا متثاقل الخطوات ، أوجست خيفة و انتابها القلق ، و لم تنتبه إلى الممرضة تنزع عنها الأنابيب و الأجهزة ، و ترفع ظهر سريرها لتجلسها و هي تحمد الله ، و تخبرها أن كل شيء عاد إلى طبيعته فجأة ، إنه أمر

عجب ، لقد ظن الجميع أنها فارقت الحياة و لن تعود من غيبوبتها أبدا ، لم تعر الممرضة انتباها فقد كانت منشغلة بالتطلع إلى غرفتها و سريرها ، ثم انتفضت فى جلستها و علامات رفض ترتسم على جبينها ، كانت نتيجة الحائط تشير إلى أنها قضت عامين كاملين فى غيبوبتها ، استدارت تمسك بذراعي الممرضة تهزهما و هي تصرخ فى وجهها تسأل عن تاريخ اليوم ، فأجابتها الممرضة تؤكد صدق التاريخ على نتيجة الحائط ، رويدا رويدا سحبت أصابعها المغروسة فى ذراع الممرضة ، و عادت لتستلقي على ظهرها فوق السرير ، ثم سألت الممرضة عن حبيبها ، منذ متي لم يأت، هل فقد الأمل فتركها يئسا من عودتها ، أم أنه لم يزل يزورها كل حين ، و هل لايزال يحبها ، أم أن بذرة الحب في قلبه ذبلت فلم يعد يحبها ، ربما تركها إلى أمرأة أخري يكمل حياته معها ، وضعت كفها على ثغر الممرضة تمنعها عن الإجابة عن أسئلتها المتلاحقة ، ثم ابتسمت و هي تنظر إلى سقف الغرفة ، تتذكر لقاءهما الأول ، أوقاتهما معا ، وردة أهداها إياها فخبأتها فى كتاب ، قبلة سرقاها في غفوة من العيون ، ثم راحت تتمتم : أحبه هكذا ، أغمضت عينيها ، توقف نبضها ، و رحلت وعلى وجهها ابتسامة.

صلصة حارة

ثم أطرقت تنظر إلي الحمار النافق عند قدميها ، تنظر إلي عينيه المنتفختين ، فمه المفتوح على مصرعيه من أخر شهيق ، كانوا قد مروا عليها ، و تركوه ملقي علي عتبات بيتها الريفي قبل نفوقه بلحظات ، أزاحوا عن رقبته طوقه الخشبي الملفوف حولها ، و معلق به عمود خشبي طويل يلتحم مع طوقه ، و يمتد عموديا على رأسه ليصل إلي بضع أمتار أمامه ، و معلق به حزمة من برسيم و جزر ، يلهث وراءها الحمار فلا يطالها ، ثم أزاحوا عن ظهره الصناديق المحملة بالأسلحة و الذخائر، التي ينقلونها من سفح الجبل إلى أعلي قمته حيث معسكرهم ، ألقوا بكل الصناديق فوق ظهر حمار أخر، أخذوه عنوة من حظيرتها ليكملوا مسيرتهم ، كل الصناديق تمايلت على جانبي ظهره ، ثم برفق شديد ، و بتؤدة مفرطة ، أمسك جنديان بصندوق خشبي صغير و بداخله قنينة صلصة حارة ، هذهالقنينة التي لا تخلو منها مائدة القائد ، كانت تتوسط الصندوق فما يظهر منها سوي عنقها ، و هي محاطة بالكثير من القش و القماش ، رفعوها برفق شديد ، ثم وسدوها ظهر الحمار الجديد ، و ما أن انتهوا حتي نفق الحمارالأخر ، و الذى قطع معهم أكثر من نصف المسافة من سفح الجبل إلي بيتها ، لم يعره أحدا منهم اهتماما ، بل انتبهوا إلي نهيق

حمارهم الجديد و هو ينظر إلى حزمة البرسيم و الجزر المعلقة أمامه ، حيث بدأ فى السير وراءه دون انتظار ، لم تكن في هذه الأثناء تفعل شيئا سوي النظر إلي الحمار النافق ، لم تنبس ببنت شفة ، فودعوها و انطلقوا يرهزون الحمار الجديد ، كي يرشدوه إلى طريق الصعود .

لم تزل واقفة على رأس الحمار النافق ، حولت ناظريها إلي قمة الجبل حيث تقع بناية القائد مطلة على السماء و الأرض ، و تذكرت حين زارته عندما أستدعاها ، بعدما علم أنها تبدع فى صنع التبغ ، لتصنع له صندوقا من التبغ ليخزنه كي يملأ منه غليونه كلما شاء ، تذكرت جلوسه متكئا ، و غليونه فى يده ، ينفث الدخان فى وجه الجندي الواقف كالوتد ، يحمل في يده منفضة السجائر ، لا يغض الطرف ولا يكد يُسمع له شهيق أو زفير، حينها وعينها إلي الأرض تجرأت تسأله عن الحمير ، لماذا كلما مروا ببيتها ، دخلوا حظيرتها عنوة ليسحبوا منها ما يشاؤون من الحمير ، فنظر إليها بابتسامة ممتعضة و لم يجبها ، بل أطرق يتحدث عن انتصاراته و غزواته و أشياء أخري لم تعد تذكرها ، لكنها تذكرت حين ألتفتت إلى الجندي الواقف يحمل منفضة السجائر ، رأته يحمل رأس حمار و جسد طفل و أرداف أمرأة شابة ، فصنعت لقائده التبغ و انصرفت بعد أن أهداها حفنة شعير و زجاجة صلصة حارة فارغة.

حين ارتد بصرها إلى الحمار النافق، الرابض أمام بيتها الريفي ، جلست على الأرض ، مالت عليه تمسح على رأسه ، ثم جلست إلي الأرض و ذراعيها وراء ظهرها ، أغمضت عينيها ، ثم مدت قدميها تدفعه ليسقط من فوق الجبل .

زبد كثيف

زبد كثيف ، لا يلبث أن يزول بأثر النسائم المعطرة برائحة الموج فلا يبقي منه شيء ، و موج يترنح فى رحيل أجباري ، بعد أن رفضته رمال الشاطيء ، فيرحل ليستجمع جرأته ليعاود الكرة ، كانت الشمس قد قاربت على المغيب، و رويدا رويدا راحت تنولق إلى جوف البحر حيث تنام ..

متكئا على بقايا مركب صيد قديم، ينفث سيجارته ، ينظر إلى محاولات الموج لاحتضان رمال الشاطيء دون جدوي ، فيرتد تاركا قواقع تغني أغنية حزينة ، هذه الأطلال التي يستند عليها كانت يوما مركب صيد لأبيه و أخوته ، أحبوا البحر فأبقاهم فى جوفه ، بعد أن حطم وسيلتهم الوحيدة للعودة للشطآن الدافئة ، و ألقي ببقاياها لتستقر فوق الشاطيء تحمل رائحتهم ، كان ينفث دخان سيجارته فى اتجاه البحر ، ينظر إلى فضاء رمادي هاديء ، لاينبأ عن شيء ، لا حراك فيه سوي لدخان السيجارة الذي يرتد إلي وجهه و كأن البحر و الرياح ترفضه ، لم يركب البحر يوما ، تمرد على صنعة أبيه و لم يقربها منذ نعومة أظافره ، فضل أن يلعب دورا أخر ، فاختار أن يبيع ما يجود به البحر على أبيه و أخوته من أسماك فى سوق البلدة ، و مذ رحلوا تأخذه قدماه كل مغيب إلى الشاطيء ، يحمل طاولات فارغة يلقي بها

فوق الرمال و يجلس متكئا على بقايا المركب، يشم فى خشبها العتيق رائحتهم ، لم يعد يتذكر وجوههم ، و لكن أصواتهم تملأ أذنيه ، قهقات أخويه ، صوت أبيه الحازم الحاني ، وصوت ارتطام الموجه بجدار المركب ، و كأنما يحاول أن ينال منها ما لم يستطع أن يناله عبر رحلتها اليومية فوقه ، لسعته سيجارته التى أوشكت على النفاذ ، فألقاها فوق سطح الماء و هم واقفا ، وضع يديه فى جيوب بنطاله ، و أخذ شهيقا ملأ صدره ، ثم أطلقه زفيرا يحمل آهات مكتومة ، مال يلتقط طاولاته الفارغة ثم سار خطوتين مغادرا ، توقف برهة ، ثم استدار و عاد إلى مكانه ، هز بقايا المركب يحركها ، و يطرد ما علق بها من رمال و طحالب ، ألقي بالطاولات على سطحها ، ثم دفعها إلى الماء و قفز فوقها ، سارت فوق الموج طود ضعيف ، و هو يجلس فوقها ، وجهه للبحر بفضائه اللامنتهي ، و الموج يحملهما معه فى رحلة عودته منكسرا بعد أن رفضته الشطوط..

نظرة خارج السور

نظرة إلى خارج السور تعبر الفراغات بين أعواده الحديدية فرحة، و قدمان تجوبان حديقة القصر، تحملانها من بستان إلى بستان ، وجه كهل رغم نضارته، و قلادة تتدلي من عنقها الذي لم يعد يقوي على حمل هذه الجواهر الثقيلة ، و الوصيفة تمشي خلفها على استحياء ، تحمل قنينة خمر و كأس ذهبي لم تعد الأميرة ترغب فى تناوله ، تسكرها شقشقات العصافير و غناءها العذب أكثر، ثلاثة و عشرون عاما ، و يوم واحد ، لم تعش سوي يوم واحد يتكرر ، تصحو فيه على صوت خادمتها و قد أحضرت لها الفطور ، تتناوله فى سريرها إلي أن تعد لها الخادمة حمامها المرمري ، فتنزل عن سريرها ، و خطوة خطوة تدنو من المغطس ، فتساعدها الخادمة فى إزاحة ملابسها عن جسدها الملكي، ثم تدخل إلي المغطس فى هدوء ، تخرج الخادمة لتدخل الوصيفة ، و الأميرة تستلقي في جوف الماء الدافيء مغمضة العينين ، بينما تقوم الوصيفة بتمرير الماء عبر خصلات شعرها الحريري ، تبلله ثم تقف لتلقي بأوراق الورود داخل المغطس فينتشر عبيرها ليملأ الحمام ، و يتسرب أحيانا من نافذتها إلى حيث الهواء الطلق..

هنيهة و تعتدل لتخرج من مغطسها عارية ، حيث تقف الوصيفة حاملة بشكير أبيض ، تدخل فيه الأميرة بهدوء ، ثم تتوجه إلى حيث تقبع ملابسها الرسمية ، لتبدأ فى إلقاء البشكير من فوق كتفيها لتكشف عن

جسدها البض ، فتقابلها خادمتان يحملان ملابسها الملكية ، ترتديها ثم تهبط إلى حيث البهو الكبير ، تستقبل فيه يومها بابتسامة زائفة ، ووجه شمعي ، هذا الوجه الذي لا تخلعه حتي بين ثنايا غرفتها ، تمشي ممشوقة الجسد ، مستقيمة الظهر ، تلوح بأناملها كلما قابلت وجه شمعي أخر ، أو تومأ برأسها تحية ، أو تشير بأصبعها لأحد الخدم إن أرادت شيئا تشربه ، تأكله ، تكسره ، و الوصيفة لا تفارق ظلها ، تقرأ أفكارها و تستجيب لرغباتها ، و حين ينتصف نهارها تخرج إلى حديقة القصر تمشي فلا يُسمع لها صوت ، و لاحتي حفيف فستناها المتهدل المنهمك في احتضان العشب و هو يسير وراءها فى كبرياء، ثلاثة و عشرون عاما ، ما أحست أنها مرت من عمرها ، إلي أن نظرت خارج السور ، ما لهذا القصر الضيق؟ ، ما لهذا اليوم الذى لا ينتهي؟ ، التفتت إلى الوصيفة تسألها و تنصت إليها و هي تتحدث عن الشوراع ، الحوانيت ، الفتيات ، الشبان ، الأطفال، البائعين ، الزحام ، الجوع ، المرض ، الفقر ، ....

لم تدري كيف جلست على العشب ، أمسكت بيد وصيفتها تجلسها أمامها ، تسألها أن تكمل حديثها ، تسارعت أنفاسها ، و جحظت عيناها ، و ابتسمت كثيرا و نظراتها تتلقف المارة خارج السور ، الزحام ، الأطفال يلعبون على الأرصفة ، بائع جوال يغني للفاكهة ، أمرأة تتأبط ذراع زوجها و يسيران تعلو وجههما ابتسامة ، سقطت عيناها على رجل يقف على الرصيف المقابل ، يحمل ألته الموسيقية العتيقة ، ويعزف ألحانا

شعبية غريبة على مسامعها ، فيلقي له المارة بالنقود التى تتلقفها قبعته الرابضة على الرصيف ، ضحكت ، ثم وقفت سريعا ، و راحت تحاول أن ترقص على أنغامه فلم يسعفها حذاؤها بكعبه العالي ، حتى أنكسر كعبه ، فخلعته و فكت أزرار مشدها تحاول أن تجلس فى راحة علي العشب، كما تجلس وصيفتها ، جلستا ينظران إلي خارج السياج الحديدي ، بينما تنساب الحكايات من ثغر الوصيفة تحكي ، و الأميرة يتلون وجهها رويدا رويدا بلون قرمزي نابض ، فاجأها قدوم أحد الخدم ، فأسرعت الوصيفة تلقاه بعيدا حتي لا يري الأميرة على هذا الحال ، ثم عادت إليها مطأطأة الرأس ، حزينة ، قفزت الأميرة واقفة تسأل ، و فى صوت متحشرج ، راحت الوصيفة تنبئها بوفاة الملك ، فوضعت الأميرة يديها على كتفي الوصيفة كأنها تهم باحتضانها، ألقت بنظرة على القصر الشامخ هناك ينتظرها ، ثم أشاحت ببصرها عنه ، و تركت الوصيفة و اتجهت صوب الباب الحديدي الشاهق ، صاحت فى الحراس .. افتحوا الباب ، و هرولت حافية فى الشوارع.